1. مفهوم البحث العلمي طبيعته .شروطه.خصائصه

البحث العلمي هو التنقيب عن حقيقة ابتغاء إعلانها دون التقيد بدوافع الباحث الشخصية أو الذاتية إلا بمقدار مايفيد في تلوين البحث بطابع الباحث وتفكيره ويعطيه من روحه التي تميزه من غيره .

أقول هذا أولاً لأشير إلى أن البحث العلمي وإن كان من الواجب أن يكون موضوعياً إلا أنه في موضوعيته لايمكن أن يتخلى تماماً عن روح الكاتب وطابعه وذاتيته ، لأن الأسلوب هوالرجل كما يقول بوفون (Buffon) .

ولكن ، مع وجود هذه الصفة المميزة التي يستمدها البحث من كاتبه ، نقول بكل صراحة وتأكيد إن البحث العلمي يجب أن يكون منزهاً عن الهوى الذاتي ، ويجب أن تكون غايته الظفر بالحقيقة واكتشافها سواء اتفقت مع ميول الباحث أم لم تتفق . هذا الأمر يجب أن يتأكد ، بصورة خاصة ، عندما يكون البحث رسالةً أو أطروحة جامعية .

هذا ومن الطبيعي ، عندما يكون البحث رسالة جامعية ، أن

بيدأ الطالب بحثه دون أن يكون له رأي مسبق في بادىء الأمر إلا بما يتعلق باختيار الموضوع . وعليه إذاً أن يقرأ حول الموضوع وأن يجمع المادة التي تفيد موضوعه وأن يحسن تفهم هذه المادة ، والقراءة والجمع عملان أساسيان يسبق الأول الثاني ويتداخلان معاً ، والباحث عند القراءة والجمع يقارن ويوازن بعيداً عن الهوى بغية الوصول إلى جوهر الحقيقة ، فهو لهذا يقرأ لاليبرهن على فكرة مسبقة في ذهنه وإنما يقرأ ليكتشف شيئاً ما ، وفي هذه المرحلة يجب أن يكون مرناً كل المرونة بعيداً عن التعصب لرأيه متخذاً جميع الوسائل التي تساعده على بلوغ هدفه ، فإذا ماقاده تنقيبه إلى تبديل رأي أو تغيير اتجاه تحت تأثير ماعثر عليه من مصادر ومراجع وما قام به من دراسة وموازنة ومقابلة غيّر رأيه بسهولة غير مهتم بما يترتب على هذا التغيير من تعب ونصب ، وبهذا يكون محققاً للروح العلمية التي يجب أن يتصف بها الباحث والتي يجب ألا تؤثر فيها أية رغبة أو هوى ، وألا يلعب بها أيُّ ميل أو مذهب .

من هنا نقول إن المادة المجموعة والدراسة الموضوعية هماللتان يجب أن تقودا إلى النتيجة . واكتشاف الحقيقة مرهون بهذه الحقائق المادية وبتفهمها الذكي الصائب .

مما تقدم نستطيع أن نعرّف البحث العلمي بأنه محاولة صادقة لاكتشاف الحقيقة بطريقة منهجية وعرضها بعد تقصٍ دقيق ونقد عميق عرضاً ينم عن ذكاء وفهم حتى يستطيع الباحث أن يقدِّم للمعرفة لبنةً جديدة ويسهم في تقدّم الإنسانية .

أنواع البحث :

لن أتعرض هنا إلى أنواع الأبحاث من حيث الذاتية والموضوعية بعد أن قررت أن البحث الجامعي الذي يهدف إلى إعداد رسالة أكاديمية يجب أن يكون قبل كل شيء موضوعياً ، وبعد أن قررت أيضاً أن البحث لايستطيع أن يتخلّى عن الذاتية التي تتجلى في أثر الكاتب والتي تحدد نوع الإبداع والابتكار وتعطيه رونق الجمال والانسجام وطابع الأسلوب الشخصي . أما الصفة الموضوعية فهي تلك التي تتجلّى في تطبيق الوسائل العلمية على البحث واستخدام المادة واستقرائها ومعالجتها بالتنقيب والتحليل والموازنة بذكاء وفهم لتقود الباحث إلى الحقيقة المنزّهة عن الهوى المؤيدة بالحجج والأسانيد .

ونرى أن جميع البحوث ، سواء أكانت علمية أم أدبية أم لغوية أم اجتماعية أم فنية ، لابد أن تسير في تحقيق أهدافها على الأسلوب الموضوعي المنهجي . وهي على الرغم من تنوّع حقولها تبقى في جوهرها واحدة إذا كان القصد منها الدراسة الأكاديمية .

بعد هذا ماالتسميات المختلفة التي تعطى لهذه البحوث؟ هناك تصنيف للبحوث من حيث الطول والقصر والتشعب والغاية ، فالبحث القصير الذي يبغي عرض قضية محددة ومناقشتها في شيء من الاختصار هو مااصطلح على تسميته بالمقالة أو الإنشاء المنهجي سواء أكان أدبياً أم علمياً ، وهو أول مايعالجه الطالب منذ أن يبدأ مرحلة دراسته الثانوية حتى نهاية دراسته الجامعية ،

وتبقى المقالة ، بعد هذا ، الموضوع المهم الذي يطرقه الكتّاب أيضاً على اختلاف أساليبهم ، ولهذا فنحن نعير المقالة ، في التدريس ، شأناً خاصاً لأنها الطريق الأول والبادرة الأولى إلى البحث العلمي بمفهومه الواسع الذي سيتعرض له الطالب فيما بعد .

والمقالة أو مايسمى بالفرنسية (article ou dissertation ou exposé) مع ما في هذه التسميات الفرنسية من فروق من حيث المضمون والشكل والاتساع ، هي الغاية التي يرمي إليها التعليم في الفروع الأدبية ليكوّن طلاباً قادرين على معالجة قضية من القضايا بأسلوب علمي صحيح ومركّز ، وتسلسل منطقي ذكي ، يعتمد على المراجع أو لايعتمد . لهذا فنحن نعير إلى حسن كتابة المقالة اهتماماً بالغاً ، والطالب الذي استطاع أن يعالج هذا الفن بمقدرة وذكاء يمكن فيما بعد أن يجول في كتابة الرسالة أو الأطروحة .

وليس المجال هنا للكلام على أنواع المقالة من ذاتية أدبية ، وعلمية موضوعية ، ومن مقالة اجتماعية ، وأخرى سياسية أو نقدية أو لغوية ، ولكنني أحب أن آتي على تعريف المقالة وبيان عناصرها بإيجاز لأن في ذلك مايعين على فهم بعض جوانب الكتابة الإنشائية سواء أكان ذلك في إنشاء المقالة ذاتها أم في إنشاء الرسالة أو الأطروحة .

فالمقالة قطعة نثرية محدودة الطول تعالج مسألة علمية أو أدبية أو اجتماعية أو سياسية أو نقدية . . . يشرحها الكاتب ويؤيدها

بالبراهين والحجج حيناً وبالانفعال الوجداني والتأثير العاطفي والتصوير الفني حيناً آخر ، مراعياً عنصر الإمتاع والإطراف والتشويق ، ويصل فيها إلى نتيجة دون تعمقٍ في ذلك أو استقصاء .

نلاحظ من هذا التعريف ـ وإن كان لاينطبق دوماً على جميع المقالات ، إذ هناك مقالات تخلو من عنصر الإمتاع ويقصد فيها تحقيق هدفها بجفاف العلم أو صرامة الباحث المحقق ـ أقول إننا نلاحظ من هذا التعريف بعض الجوانب التي يجب أن تتحقق لافي المقالة فقط بل في إنشاء الرسالة أيضاً وهي التأييد بالبراهين والحجج ، أما الانفعال الوجداني فهو مالا نطلبه مطلقاً من الباحث الأكاديمي في رسالة ما ، وإن كنا نطلب منه طلاوة الأسلوب وصحته وانسجامه ، أما النتيجة التي يجب أن يصل إليها الباحث في بحثه فهي تماماً على عكس نتيجة كاتب المقالة إذ يجب أن تكون نتيجةً عميقةً ، وأن يكون استقصاؤه مدروساً كما يجب أن يكون اكتشافه محققاً لهدف البحث ومغنياً للمعرفة الإنسانية ، وهذا مالانطلبه من كاتب المقالة كما رأينا .

وعناصر المقالة الأساسية هي : الفكرة ، ويشترط فيها القوة والوضوح ؛ والأسلوب ، وينبغي أن يكون سهلاً دقيقاً في المقالة الموضوعية ، موسيقياً مزخرفاً يعتمد على التصوير والتلوين في المقالة الذاتية ؛ والعرض أو (الخطة) ويراعى فيه التنظيم والتنسيق وإحكام الربط بين المقدمات والنتائج في المقالة الموضوعية ، كما

يراعى فيه الجمال وتتابع الصور وتسلسل القصة في المقالة الذاتية .

وتتكوَّن المقالة ، عادةً ، من مقدمة وموضوع وخاتمة ، يراعى فيها النظام والترتيب والانسجام بين المقدمة والموضوع وانصباب الأفكار كلها نحو الوصول إلى نتيجة معينة تمهد لها المقدمة كما يمهد لها الموضوع .

أما **المقدمة** فهي موجز للأفكار التي سيعالجها الكاتب في مقالته أو إيماء لها في براعة استهلال ، وأما **الموضوع** فهو شرح وتفصيل للأفكار التي أوجزت في المقدمة ، وأما **الخاتمة** فهي النتيجة التي وصل إليها الكاتب بناءً على الحجج والبراهين المنطقية والتأثيرية التي أوردها في الموضوع .

ولم يخل أدبنا العربي القديم من أصول المقالة نجدها عند ابن المقفع والجاحظ وغيرهما ، وكانوا يطلقون عليها اسم الرسالة وهو مايسمى بالفرنسية (épître) وإن كانت الرسالة القديمة أطول من المقالة الحديثة . . .

وقد أخذنا المقالة عن الغربيين حين أخذنا عنهم فن الصحافة فاقتضت الضرورة أن يتحدث الكاتب عن المشكلات المختلفة فنشآت المقالة التي تتميز بوضوحها لأنها موجهة إلى جمهور كبير من الناس متباين الوعي والإدراك ، كما تتميز بسهولة أسلوبها وبعده عن التكلف والصنعة .

وقد عرف أدبنا الحديث كثيراً من الأدباء الذين عالجوا فن

المقالة بمختلف أنواعها وغذّوا المكتبة العربية بروائع آثارهم ، ولعلنا لانستطيع حصرهم وتعداد ألوانهم الكتابية ، فهناك مَنْ عُرِف بالأسلوب العلمي الرصين كيعقوب صروف وأحمد زكي ، وهناك من امتاز بأسلوبه الخطابي وبرع في تخيّر الألفاظ ومراعاة المشاكلة في رصفها وتنسيقها كالمنفلوطي ، وهناك طه حسين في أسلوبه الجامع بين موضوعية العلم وذاتيه الفن متأثراً بالجاحظ في حرصه على تلوين العبارة وتنويع الصور مع محبةٍ للتكرار وسلاسةٍ في العبارة ، بينما ظهرت على مقالات أحمد أمين تلك العناية بالفكرة ، فهو يكتب بعقله أكثر مما يكتب بقلبه وشعوره ، وقد امتاز أسلوبه بالوضوح والإيجاز في العرض ، أما أحمد حسن الزيات فهو صاحب الصنعة المقبولة يحسن الرصف والتزيين ويجيد تنسيق فسيفساء العبارة .

ويبقى إبراهيم عبد القادر المازني بين كتّاب المقالة ذلك الكاتب البارع الموهوب الذي عكس الحياة من خلال نفسه ، فضحك منها وسخر من متناقضاتها في مرارة لاتكاد تستر نفسها حتى تبين من خلال عباراته اللاذعة التي كانت تتدفق تدفق الماء الرقراق .

تلك هي المقالة ، أولى أنواع الكتابة التي ترمي إلى البحث في قضية محددة ، ونرى من الواجب عل الطالب أن يحسنها قبل أن يخوض في خضم البحث الطويل الذي تضمه الرسالة أو الأطروحة وقد قال العقاد : المقالة مشروع كتاب .

ولهذا لابد للطالب من أن يكون قد مرَّ بمرحلة كتابة المقالة

المقالة بمختلف أنواعها وغذّوا المكتبة العربية بروائع آثارهم ، ولعلنا لانستطيع حصرهم وتعداد ألوانهم الكتابية ، فهناك مَنْ عُرِف بالأسلوب العلمي الرصين كيعقوب صروف وأحمد زكي ، وهناك من امتاز بأسلوبه الخطابي وبرع في تخيّر الألفاظ ومراعاة المشاكلة في رصفها وتنسيقها كالمنفلوطي ، وهناك طه حسين في أسلوبه الجامع بين موضوعية العلم وذاتيه الفن متأثراً بالجاحظ في حرصه على تلوين العبارة وتنويع الصور مع محبةٍ للتكرار وسلاسةٍ في العبارة ، بينما ظهرت على مقالات أحمد أمين تلك العناية بالفكرة ، فهو يكتب بعقله أكثر مما يكتب بقلبه وشعوره ، وقد امتاز أسلوبه بالوضوح والإيجاز في العرض ، أما أحمد حسن الزيات فهو صاحب الصنعة المقبولة يحسن الرصف والتزيين ويجيد تنسيق فسيفساء العبارة .

ويبقى إبراهيم عبد القادر المازني بين كتّاب المقالة ذلك الكاتب البارع الموهوب الذي عكس الحياة من خلال نفسه ، فضحك منها وسخر من متناقضاتها في مرارة لاتكاد تستر نفسها حتى تبين من خلال عباراته اللاذعة التي كانت تتدفق تدفق الماء الرقراق .

تلك هي المقالة ، أولى أنواع الكتابة التي ترمي إلى البحث في قضية محددة ، ونرى من الواجب عل الطالب أن يحسنها قبل أن يخوض في خضم البحث الطويل الذي تضمه الرسالة أو الأطروحة وقد قال العقاد : المقالة مشروع كتاب .

ولهذا لابد للطالب من أن يكون قد مرَّ بمرحلة كتابة المقالة

وتدرَّب على جمع المواد لها وترتيبها ترتيباً منطقياً والتأليف فيما بينها ، وفي تحمّل المسؤولية فيما يعرضه من آراء وما يصل إليه من نقد ، وإن كنا لانطلب منه في هذا النوع من البحث أن يصل إلى اكتشاف مبتكر أو حقيقة ثابتة ، وإنما نطلب منه تفكيراً سليماً قويماً ، وأسلوباً متيناً رائعاً ، وتسلسلاً منطقياً ذكياً .

أما الرسالة أو الأطروحة فهي البحث المتصل الطويل الذي يتعهده الباحث ليكشف لنا عن حقيقة من الحقائق مدعومة بالبراهين والأسانيد ، والرسالة تسمية أكاديمية لما هو معروف بالفرنسية باسمThèse ، وإن كان لفظ أُطروحة هو أكثر قرباً لمعنى اللفظة الفرنسية لأن طرح الفكرة أو الموضوع والبحث عن حقيقته هو مايرمى إليه كاتب الأطروحة.

على أن أكثر الجامعات العربية اصطلح على أن تكون تسمية الرسالة للبحث الذي يقدم للحصول على «الدبلوم» أو درجة «الماجستير» ، أما الأطروحة فإنها مصطلح للبحث الذي يقدم للحصول على درجة «دكتوراه الدولة» . والرسالة عادة أقصر من الأطروحة التي تتطلب دراسة أعمق وأطول .

وإذا كانت رسالة الدبلوم أو الماجستير تمد الطالب بتجارب وافية في البحث وتضيف جديداً للثقافة العالية فإن الأطروحة التي تقدّم لنيل شهادة دكتوراه الدولة يجب أن يكون الجديد فيها الذي يضاف للمعرفة الإنسانية أقوى وأكثر وضوحاً . ولهذا فهي تعتمد على مراجع أوسع وتحتاج إلى براعة في التحليل والاستنتاج ليغدو ذاك الأثر عملاً إبداعياً ممتازاً